ثم يقولْ تعالى : ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الإسراء]

(وَقْراً) أى : صَمَم ، والمراد أنهم لا يستمعون سماعاً مفيداً ؛ لأنه ما فائدة السمع ؟ واللغة وسيلة بين متكلم ومخاطب ، ومن خلالها تنتقل الأفكار والخواطر لتحقيق غاية ، فإذا كان يستمع بدون فائدة فلا جدوى منْ سمعه وكان به صَمماً .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا.. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الإسراء]

لماذا ولوا على أدبارهم نفوراً ؟ لأنك أتيتَ لهم بما يُخوِّفهم ويُزعجهم ، وبالله لو أن قضيةَ الإيمان ليست فطرية موجودة فى الذات وفى ذرّات التكوين ، أكان هؤلاء يخافون من ذكر الله ؟ فَممَّا يخافون وهم لا يؤمنون بالله ، ولا يعترفون بوجوده تعالى ؟

إذن : ما هذا الخوف منهم إلا لانقهار الطبع ، وانقهار الفطرة التى يعتريها غفلة ، فإذا ذُكِر الله تعالى أمامهم ، فإذا بهم يُولُّون مدبرين فى خَوْفٍ ونُفور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى لا يَخْفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهذه حقيقة كان على الكفار أنْ ينتبهوا إليها ويُراعوها ، ويأخذوها سبيلاً إلى الإيمان بالله ، فقد أخبر سبحانه نبيه ﷺ بقوله :

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة]

فكان عليهم أن يتدبروا هذا القول : فهم قالوا فى أنفسهم ، ولم يقولوا لأحد ، فمَنْ أخبر محمداً بهذا القول الذى لم يخرج إلى عالم الواقع ، ومَنْ أطلعه عليه ؟ ألاَ يدعوهم هذا الإعلام بما يدور فى نفوسهم إلى الإيمان بالله ؟

وما دام الحق سبحانه يعلم كل الأحوال ، ولا يَخْفَى عليه شىء ، فهو أعلم بأحوالهم هذه : **الأول** : يستمعون إليك . **والثانى** : وإذ هم نجوى . **والثالث** : إذ يقول الظالمون . إذن : هم يستمعون ثم يتناجون ، ثم يقول بعضهم لبعض .

قالوا : إن سبب نزول هذه الآية ما كان عند العرب من حُبٍّ للغة وشغف بأساليب البيان ؛ لذلك كانت معجزة النبى ﷺ من جنس ما نبغ فيه قومه ، لتكون أوضح فى التحدى ، هكذا شأن الحق سبحانه مع كل الرسل .

وكان للعرب أسواق للبيان والبلاغة يجتمع فيها أهل الشعر والبلاغة والفصاحة ، وفى مكة تصب كل الألسنة فى مواسم الحج ، فعرفوا صفوة لغات الجزيرة وأساليبها ، ومن هنا انجذبوا لسماع القرآن ، وشغفوا ببيانه بما لديهم من أذن مُرْهفة للأسلوب وملَكة عربية أصيلة ، إلا أن القرآن له مطلوبات وتكاليف لا يقدرون عليها ، ولديه منهج سيُقوِّض مملكة السيادة التى يعيشون فيها .

ومن هنا كابروا وعاندوا ، ووقفوا فى وجه هذه الدعوة ، وإنْ كانوا

مُعْجبين بالقرآن إعجاباً بيانياً بلاغياً بما فى طباعهم من ملكات عربية .

فيُرْوَى أن كباراً مثل : النضر بن الحارث ، وأبى سفيان ، وأبى لهب كانوا يتسللون بعد أن ينام الناس ـ ممن كانوا يقولون لهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » ـ كانوا يذهبون إلى البيت يتسمَّعون لقراءة القرآن ، ولماذا يحرمون أنفسهم من سماع هذا الضرب البديع من القول ، وقد حرموا مواجيدهم وقلوبهم منه ، فكانوا عند انصرافهم يرى بعضهم بعضاً مُتسلّلاً مُتخفّياً ، فكانوا مرة يكذبون على بعضهم بحجج واهية ، ومرة يعترفون بما وقعوا فيه من حُبٍّ لسماع القرآن[1] .

فقال تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء] أى : بالحال الذى يستمعون عليه ، إذ يستمعون إليك بحال إعجاب . ثم : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء] من التناجى وهو الكلام سراً ، أو : أن نَجْوى جمع نجى ، كقتيل وقَتْلى ، وجريح وجَرْحى .

فالمعنى : نحن أعلم بما يستمعون إليه ، وإذ هم متناجون أو نجوى ، فكأن كل حالهم تناجٍ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء] فيه مبالغة ، كما تقول : رجل عادل ، ورجل عَدْل . ومنْ تناجيهم مَا قاله أحدهم بعد سماعه لآيات القرآن : « والله ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة[2] ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه »[3] .

---

(١) أورد ابن هشام هذه القصة فى السيرة النبوية (١/٣١٥) .

(٢) الطلاوة : الحسن والبهجة والقبول والرونق . [لسان العرب ـ مادة : طلى] .

(٣) هو من قول الوليد بن المغيرة . وانظر السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٧٠) .

ثم تأتى الحالة الثالثة من أحوالهم : ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴿٤٧﴾﴾ [الإسراء]

وهذا هو القول المعلَن عندهم ، أن يتهموا رسول الله بالسحر مرة ، وبالجنون أخرى ، ومرة قالوا : شاعر . وأخرى قالوا : كاهن . وهذا كله إفلاس فى الحجة ، ودليل على غبائهم العقدىّ .

وكلمة (مَسْحُوراً) اسم مفعول من السحر ، وهى تخييل الفعْل . وليس فعلاً ، وتخييل القَوْل وليس قولاً ، فهى صَرْف للنظر عن إدراك الحقائق ، أما الحقائق فهى ثابتة لا تتغير .

لذلك نقول : إن معجزة موسى ـ عليه السلام ـ من جنس السحر وليست سحْراً ؛ لأن ما جرى فيها كان حقيقة لا سحْراً ، فقد انقلبتْ العصا حَيَّة تبتلع حبال السحرة وعصيِّهم على وَجْه الحقيقة ، لكن لما كانت المعجزة فى مجال السحر ظنها الناسُ سحْراً ؛ لأن القرآن قال فى سحرة فرعون : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف] وقال فى آية أخرى : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه]

إذن : فحقيقة الأشياء ثابتة لا تتغير ، فالساحر يرى العصا عصا ، أما المسحور فيراها حية ، وليست كذلك مسألة موسى ـ عليه السلام ـ وليؤكد لنا الحق سبحانه هذا المعنى ، وأنَّ ما حدث من موسى ليس من سحرهم وتغفيلهم أنه حينما قال له : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه]

فأطال موسى ـ عليه السلام ـ الكلام ؛ لأنه أحب الأُنْس بالكلام

مع ربه تعالى فأجاب : ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ⦗١٨⦘﴾ [طه] ثم أحس موسى أنه أطال فقال موجزاً : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ⦗١٨⦘﴾ [طه]

فهذا هو مدى علْمه عن العصا التى فى يده ، لكن الله تعالى سيجعلها غير ذلك ، فقال له : ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ⦗١٩⦘ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ⦗٢٠⦘﴾ [طه]

فهل خُيِّل لموسى أنها حيَّة وهى عصا ؟ أم أنها انقلبت حيَّة فعلاً ؟ إنها حية فعلاً على وجه الحقيقة ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ⦗٦٧⦘﴾ [طه]

وموسى لم يَخَفْ إلا لأنه وجد العصا حيَّة حقيقية ، ثم طمأنه ربه : ﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ⦗٦٨⦘﴾ [طه]

لذلك لما رأى السحرة ما تفعله عصا موسى علموا أنها ليست سحراً ، بل هى شىء خارج عن نطاق السحر والسحرة ، وفوق قدرة موسى عليه السلام ، فآمنوا بربِّ موسى القادر وحده على إجراء مثل هذه المعجزة .

وقوله تعالى : ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ⦗٤٧⦘﴾ [الإسراء]

أى : سحره غيره . وهذا قوْل الظالمين الذين يُلفِّقون لرسول الله التهمة بعد الأخرى ، وقد قالوا أيضاً : ساحر . قال تعالى : ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ⦗٢⦘﴾ [يونس]

---

(١) هش الشجر يهشه : ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية . قال تعالى : ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ⦗١٨⦘﴾ [طه] أى : أسقط بعصاى أوراق الشجر على غنمى لتأكلها . [القاموس القويم ٢/٣٠٢] .

فمـرّة قُلْتم : ساحر . ومرة قلتـم : مسحور . وهذا دليل التـخبُّط واللَّجج ، فـإن كان سـاحـراً فعندكم من السـحـرة كثـيرون ، فلمـاذا لا يُواجِهونه بسحـر مثل سِحْره ؟ ولماذا لم يسحركم أنتم كـما سحر غيركم وتنتهى المسألة ؟ وهل يمكن أن يُسْحر الساحر ؟

وإنْ كان مـسحوراً سـحره غـيره ، فهل جـرَّبْتُم عليه فى سـحره كلاماً مخالفاً لواقع ؟ هل سمعتموه يهذى كما يهذى المسحور ؟ إذن : فهـذا اتهام باطل وقـول كاذب لا أصل له ، بدليل أنكم تأبَّيـتم عليه ، ولم يُصبكم منه أذى .

فلما أخفقوا فى هذه التهمة ذهبـوا إلى ناحية أخرى فقالوا : شاعر ، وبالله أمثلُكم أيها العرب ، يا أربابَ اللغة والفصاحة والبيان - يَخْفى عليه أن يُفرِّقَ بين الشعر والنثر ؟ والقرآن أسلوب متفرد بذاته ، لا هو شعر ، ولا هو نثر ، ولا هو مسجوع ، ولا هو مُرْسل ، إنه نسيج وحده .

لذلك نجد أهل الأدب يُقسِّمون الكلام إلى قسمين : كلام الله وكلام البشر ، فكلام البشر قسمـان : شعر ونثر ويخرج كلام الله تعالى من دائرة التقسيم ؛ لأنه متفرد بذاته عن كل كلام .

فلو قـرأت مثـلاً فى كـتب الأدب تجد الكـاتب يقول : هذا العـدل محمود عواقبه ، وهذه النُّـبْوة غُمّة ثم تنجلى ، ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سـيبـه ، أو تأخـر غيـر ضنين غناؤه ، فـأبطأ الدِّلاَء فَـيْضـاً أحفلُهـا ، وأثقل السحائب مَـشْياً أحـفلها ، ومع اليـوم غد ، ولكلٍّ أجل كتاب ، له الحمد على احتباله ، ولا عتب عليه فى احتفاله .

فإنْ يكن الفِعْلُ الذى سَاءَ وَاحِداً   فأفْعالُه اللّلائِى سرَرْنَ أُلُوفُ

فلا شكَّ أنك ستعرف انتقالك من النثر إلى الشعر ، وسوف تُميِّز أذنك بين الأسلوبين ، لكن أسلوب القرآن غير ذلك ، فأنت تقرأ آياته فتجدها تنساب انسياباً لا تلحظ فيه أنكَ انتقلتَ من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر . واقرأ قول الله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)﴾ [الحجر]

أَجْرِ عليه ما يُجريه أهل الشعر من الوزن ، فسوف تجد بها وزناً شعرياً : مستفعل فاعلات .... وكذلك : ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ (٥٠)﴾ [الحجر] تعطيك الشطر الثاني من البيت ، لكن هل لاحظتَ ذلك في سياق الآيات ؟ وهل لاحظتَ أنك انتقلت من شعر إلى نثر ، أو من نثر إلى شعر ؟

إذن : فالقرآن نسيج فريد لا يُقال له : شعر ولا نثر ، وهذا الأمر لا يَخْفى على العربي الذي تمرَّس في اللغة شعرها ونثرها ، ويستطيع تمييز الجيِّد من الرديء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨)﴾

أي : تعجَّبْ مما هم فيه من تخبُّط ولَجج ، فمرَّة يقولون عن القرآن : سحر ومرة يقولون : شعر ، ويصفونك بأنك : شاعر ، وكاهن ، وساحر .

ومعلوم أنَّ الرسالة لها عناصر ثلاثة : مُرسِل ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، ومُرسَل وهو النبى ﷺ ومُرْسَلٌ به وهو القرآن الكريم ، وقد تخبّط الكفار فى هذه الثلاثة ودعاهم الظلم إلى أن يقول فيها قولاً كاذباً افتراءً على الله تعالى وعلى رسوله وعلى كتابه .

وقد سبق أن تحدثنا عن افتراءاتهم فى الألوهية وعن موقفهم من رسول الله ﷺ .

ومن ذلك قولهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

وقولهم عن القضية الإيمانية العامة : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

أهذه دعوة يدعو بها عاقل ؟! فبدل أنْ يقولوا : فاهدنا إليه تراهم يُفضّلون الموت على سماع القرآن ، وهذا دليل على كِبْرهم وعنادهم وحماقتهم أمام كتاب الله .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى من حبه لرسوله ﷺ ورفْعة منزلته حتى عند الكافرين به ، يردُّ على الكافرين افتراءهم ، ويُطمئن قلب رسوله ، ويتحمل عنه الإيذاء فى قوله تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ .. (٣٣)﴾ [الأنعام]

أى : قولهم لك : ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، ومجنون ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام]

فليست المسألة عندك يا محمد ، فهُمْ مع كفرهم لا يكذبونك

ولا يجرؤون على ذلك ولا يتهمونك ، إنما المسألة أنهم يجحدون بآياتي ، وكُلُّ تصرفاتهم في مقام الألوهية ، وفي مقام النبوة ، وفي مقام الكتاب ناشئة عن الظلم .

وقولهم عن رسول الله : مجنون قولٌ كاذب بعيد عن الواقع ؛ لأن ما هو الجنون ؟ الجنون أن تُفسد في الإنسان آلة التفكير والاختيار بين البدائل ، والجنون قد يكون بسبب خَلْقي أي : خلقه الله تعالى هكذا ، أو بسبب طارىء كأنْ يُضربَ الإنسان على رأسه مثلاً ، فيختلّ عنده مجال التفكير .

ومن رحمة الله تعالى بالعبد أن أخَّرَ له التكليف إلى سِنِّ البلوغ واكتمال العقل ، وحتى يكون قادراً على إنجاب مثله ؛ لأنه لو كلّفه قبل البلوغ فسوف تطرأ عليه تغييرات غريزية قد يحتج بها ، ومع ذلك طلب من الأب أن يأمر ابنه بالصلاة قبل سِنِّ التكليف ليُعَوِّده الصلاة من الصغير ليكون على إلْفٍ بها حين يبلغ سِنّ التكليف ، وليألف صيغة الأمر من الآمر .

والإنسان لا يشك في حُبِّ أبيه وحِرْصه على مصلحته ، فهو الذي يُربِّيه ويُوفّر له كل ما يحتاج ، فله ثقة بالأب المحس ، فالحق سبحانه يريد أنْ يُربِّبَ فينا الطاعة لمن نعلم خيره علينا ، فإذا ما جاء وقت التكليف يسهل علينا ولا يشق ؛ لأنها أصبحتْ عادة .

والذي أعطى للأب حَقّ الأمر أعطاه حَقّ العقاب على تركه ليكون التكليف من الرب الصغير ، والعقوبة من الرب الصغير لِتُعوِّده بالأُبُوة

المحسَّة والرحمة الظاهرة على طاعة الحق سبحانه الذى أنعم علىَّ وعليك .

فالعقل ـ إذن ـ شرْط أساسى فى التكليف ، وهو العقل الناضج الحرّ غير المكْرَه ، فإنْ حدث إكراه فلا تكليف .

فقوله : ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ .. (٤٨)﴾ [الإسراء] أى : قالوا مجنون ، والمجنون ليس عنده اختيار بين البدائل ، وقد ردَّ الحق سبحانه عليهم بقوله : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

فنفى الحق سبحانه عن رسوله هذه الصفة ، وأثبت له صفة الخُلق العظيم ، والمجنون لا خُلقَ له ، ولا يُحاسَب على تصرفاته ، فهو يشتم هذا ويضرب هذا ويبصق فى وجه هذا ، ولا نملك إلا أنْ نبتسم فى وجهه ونُشفق عليه .

ولقائل أنْ يقول : كيف يسلبه الخالق سبحانه وتعالى نعمة العقل ، وهو الإنسان الذى كرّمه الله ؟ وكيف يعيش هكذا مجرد نسخة لإنسان ؟

ولنعلم الحكمة من هذه القضية علينا أنْ نُقارن بين حال العقلاء وحال المجنون ، لنعرف عدالة السماء وحكمة الخالق سبحانه ، فالعاقل نحاسبه على كل كبيرة وصغيرة ومقتضى ما تطلبه من عظمة فى الكون ، ومن جاه وسلطان ألاَّ يُعقَّب على كلامك أحد ، وأنْ تفعلَ ما تريد .

ألاَ ترى أن المجنون كذلك يقول ويفعل ما يريد ، ثم يمتاز عنك أن لا يسأل فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟ أليست هذه كافية لتُعوِّضه عن فقد العقل ؟ فلا تنظر إلى ما سلب منه ، ولكن إلى ما أعطاه من مَيْزات فى الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء]

أى : لم يستطيعوا أنْ يأتُوا بمثَلٍ يكون صادًا وصارفًا لمن يؤمن بك أنْ يؤمن ، فقالوا : مجنون وكذبوا . وقالوا : ساحر وكذبوا . وقالوا : شاعر وكذبوا . وقالوا : كاهن وكذبوا . فَسُدَّتْ الطرق فى وجوههم ، ولم يجدوا مَنْفَذاً لصدِّ الناس عن رسول الله .

فلما عجزوا عن إيجاد وَصْف يصدُّ مَنْ يريد الإيمان برسول الله ، قالوا : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]

ومنهم مَنْ قال : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

فلم يستطيعوا إيجاد سبيل يُعَوِّقون به دعوتك ، بدليل أنه رغم ضَعْف الدعوة في بدايتها ، ورغم اضطهادهم لها تراها تزداد يوماً بعد يوم ، وتتسع رُقْعة الإيمان ، أما كَيْدهم وتدبيرهم فيتجمَّد أو يقلّ . كما فى قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا[1] مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴿٤١﴾﴾ [الرعد]

(١) قال ابن عباس فى تأويل هذه الآية : « أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وفى رواية عنه : نقصان أهلها وبركتها » . [تفسير ابن كثير ٢/ ٥٢٠] .

فكل يوم تزداد أرض الإيمان ، وتقلُّ أرض الكفر .

والحق سبحانه وتعالى فى قضية استماع القرآن وقولهم : قلوبنا فى أكنة ، وقلوبنا غلف يريد أن يُلفتَ أنظارنا إلى قضية هامة فى الوجود ومنتظمة فى كل الكائنات ، وهى أن الأفعال تقتضى فاعلاً للحدث وقابلاً لفعل الحدث ، ومثال ذلك : الفلاح الذى يُقلِّب التربة بفأسه ، فتقبل التربة منه هذا الفعل ، وتنفعل هى معه ، فتعطيه ما ينتظره من محصول .. أما لو فعل هذا الفعل فى صخرة فلن تقبل منه هذا الفعل . إذن : فثمرة الحدث تتوقف على طرفين : فاعل ، وقابل للفعل .

لذلك أتعجب من هؤلاء الذين يقولون : إن الغرب يفتن المسلمين عن دينهم ، ويأتى إلينا بالمغْريات وأسباب الانحراف ، ويُصدّر إلينا المبادىء الهدامة ويُشككنا فى ديننا .. إلخ .

ونقول لهؤلاء : ما يضركم أنتم إنْ فعل هو ولم تقبلوا أنتم منه هذا الفعل ؟! دَعُوه يفعل ما يريد ، المهم ألاَّ نقبلَ وألاَّ نتفاعلَ مع مقولاته ومبادئه . فالخيبة ليست فى فعل الغرب بنا ، ولكن فى تقبُّلنا نحن ولَهْثنا وراء كُلِّ ما يأتينا من ناحيته ، وما ذلك إلا لقلّة الخميرة الإيمانية فى نفوسنا ، فالغرب يريد أنْ يُثبِّت نفوذه ، ويثبت مبادئه ، وما عليك إلاَّ أنْ تتأبَّى على قبول مثل هذه الضلالات .

وعلى نظرية الفاعل والقابل هذه تُبنَى الحضارات فى العالم كله ؛ لأن الخالق سبحانه حينما استدعانا إلى الوجود جعل لنا فيه مُقوِّمات الحياة الأساسية من : شمس ، وقمر ، ونجوم ، وأرض ، وسماء ،

وماء ، وهواء . ومن هذه المقوّمات ما يعطيك ويخدمك دون أنْ تتفاعل معه أو تطلبَ منه ، كالشمس والماء والهواء ، ومنها ما لا يعطيك إلاَّ إذا تفاعلتَ معه مثل الأرض لا تعطيك إلا إذا تعهدتها بالحرث والسَّقْى والبَذْر .

والمتأمل فى الكون يجد أن جميع ارتقاءات البشر من هذا النوع الثانى الذى لا يعطيك إلا إذا تفاعلتَ معه ، وقد ترتقى الطموحات البشرية إلى أن تجعلَ من النوع الأول الذى يعطيك دون أن تتفاعلَ معه ومن غير سلطان لك عليه ، تجعل منه مُنْفَعلاً بعملك فيه ، كما يحدث الآن فى استعمال الطاقة الشمسية فى مجالات جديدة لم تكُنْ من قبل . إذن : فهذه ارتقاءاتٌ لا يُحْرَم منها مَنْ أخذ بالأسباب وسَعَى إلى الرُّقىِّ والتقدم .

إذن : إنْ جاء يُشكِّك فى دينك نَدَعْهُ ، وما يقول فليس بملوم ، إنما الملوم أنت إنْ قبلْتَ منه ؛ ولذلك يجب علينا وعلى كُلِّ قائم على تربية النشء أنْ نُحصِّن أولادنا ضد هجمات الإلحاد والتنصير والتغريب ، ونُعلِّمهم من أساسيات الدين ما يُمكِّنهم من الدفاع والردِّ بالحجة والإقناع حتى لا يقعوا فريسة سَهْلة فى أيدى هؤلاء .

وهذه هى المناعة المطلوبة وما أشبهها بما نستخدمه فى الماديات من التطعيم ضد المرض ، حتى إذا طرأ على الجسم لا يؤثر فيه . ألاَ ترى الحق سبحانه فى قرآنه الكريم يَعْرِض لشُبَه الكافرين والملاحدة ويُفصِّلها ويُناقشها ، ثم يبين زَيْفها ، فيقول : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ۝٥ ﴾ [الكهف]

فلماذا يعرضها القرآن ؟ هل لنأخذ بها ونتعلمها ؟ لا بل لكى لا نُفَاجأ بها ، فإذا أتَتْ يكون لدينا المناعة الكافية ضِدّها ، ولكى تتربَّى فينا الحصانة المانعة من الانزلاق أو الانحراف .

إذن : فأصول الحياة فاعل وقابل ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً فقلنا : فى الشتاء ينفخ الإنسان فى يده ليدفئها ، وكذلك ينفخ فى كوب الشاى ليبرده ، فالفعل واحد ولكن القابل مختلف . وكذلك حال الناس فى سماع القرآن واستقبال كلمات الله ، فقد استقبله أحد الكفار[1] فى حال هدوء وانسجام ، فقال :

« والله إنَّ له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغْدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه » لقد استمعه بملكة العربى الشَّغُوف بكل ما هو جميل من القَوْل ، لا بملكة العناد والكِبْر والغطرسة .

وكذلك سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ له حالان فى سماع القرآن : حال كفر وشدة وغلظة عند سماع القرآن ، وحال إيمان ورقَّة قلب حينما بلغه نبأ إسلام أخته ، فأسرع إليها وهى تقرأ القرآن ، فصفَعها بقسْوة حتى أدْمَى وجهها ، فأخذتْه عاطفة الرحم ، وتغلبت على عاطفة الكفر عنده ، فلما سمع القرآنَ بهذه العاطفة الحانية تأثَّر به ، فآمن منْ فَوْره ؛ لأن القرآنَ صادف منه قَلْباً صافياً ، فلا بد أنْ يُؤثِّر فيه .

---

(١) هو : الوليد بن المغيرة . وهذا القول نقله ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) . وذلك أن أشراف قريش اجتمعوا ليروا رأياً واحداً فى أمر محمد ﷺ رفض الوليد كل ما قاله القوم عن محمد إلى أن قال قولته هذه ثم قال : « ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأنْ تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يُفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته » .

فالمسألة - إذن - تحتاج أن يكون لدى القابل استعداد لتقبُّل الشيء والانفعال به .

وقد لخَّص لنا الحق سبحانه هذه القضية في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] فيأتى الرد عليهم : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد]

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. (٤٤) ﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، ولكن المستقبل مختلف ، إذن : فإياك أنْ تلوم مَنْ يريد أن يلوىَ الناس إلى طريق الضلال ، بل دَعْه في ضلاله ، وربِّ في الآخرين مناعة حتى لا يتأثروا ولا يستجيبوا له .

بعد أن تكلمنا عن موقف الكفار من الألوهية ومن النبوة نتكلم عن موقفهم من المنهج الذى جاء به رسول الله ﷺ ، وهذا المنهج يتضمن قضايا كثيرة وأموراً متعددة ، لكن أم هذا المنهج وأساسه أن نؤمن بالآخرة ، وما دُمْنَا نؤمن بالآخرة فسوف تنسجم حركتنا في الحياة . فالإيمان بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب هو الحافز لنا على العمل والاستقامة في الدنيا ، وما أشبه ذلك بالتلميذ الذى يجتهد ويجدّ ؛ لأنه يؤمن بالامتحان آخر العام ، وما ينتج عنه من توفيق أو إخفاق .

غبىٌّ مَنْ يظن أن الدنيا هى نهاية المطاف ، وأنها الغاية التى ليس بعدها غاية ؛ لأن الجميع عبيدٌ لله تعالى متساوون ، ومع ذلك نرى مَنْ يموت فى بطن أمه ، ومَنْ يموت بعد عدة شهور ، وآخر بعد عدة أعوام ، فلو أن الدنيا هى الغاية لاستوى الجميع فى المكْث فيها ، فاختلاف الأعمار فى الدنيا دليلٌ على أنها ليست غاية .

وعجيب فى أمر الموت أن نرى الناس يحزنون كثيراً على مَنْ مات صغيراً ويقولون : أُخذ فى شبابه ويُكثرون عليه العويل ، لماذا ؟ يقولون : لأنه لم يتمتع بالدنيا ، سبحان الله أى دنيا هذه التى تتحدثون عنها ، وقد اختاره الله قبل أنْ تُلوّثه آثامها وتُلطِّخه ذنوبها ، لماذا تحزنون كل هذا الحزن ولو رأيتم ما هو فيه لحسدتموه عليه ؟

والناس كثيراً ما يُخطئون فى تقدير الغايات ؛ لأن كل حَدَث يُحدثه الإنسان له غاية من هذا الحدث ، هذه الغاية مرحلية وليست نهائية ، فالغاية النهائية والحقيقية ما ليس بعدها غاية أخرى ، فالتلميذ يذاكر بالمرحلة الابتدائية لينتقل إلى المرحلة الإعدادية ، ويذاكر الإعدادية لينتقلَ إلى الثانوية .

وهكذا تتوالى الغايات فى الدنيا إلى أنْ يصل إلى غاية الدنيا الأخيرة ، وهى أن يبنى بيتاً ويتزوج ويعيش حياة سعيدة يرتاح فيها بما تحت يديه من خدم ، يقضون له ما يريد ، هذا على فرض أنه سيعيش حتى يكمل هذه المراحل ، ولكن ربما مات قبل أنْ يصلَ إلى هذه الغاية .

إذن : فلابد للإنسان أنْ يتعبَ أولاً ، ويبذل المجهود ليصبح مخدوماً ، وهذه المخدومية تتناسب مع مجهودك الأول ، فَمن اكتفى

بالإعدادية مثلاً ليس كمن تخرَّج من الجـامعة ، فلكُلٍّ مرتبته ومكانته ؛ لأنك تعيش فى الدنيا بالأسباب وعلى قَدْر ما تعطى تأخذ .

إذن : فـغايتك فى الدنيـا أن تكون مـخدومـاً ، مع أن خادمك قـد يتمرَّد عليك وقد يتركك ، أما غاية الآخرة فسوف تُوفِّر عليك هذا كله ، وليس لأحد عـلاقة بك إلا ذاتك أنت ، فـبمجـرد أنْ يخطر الشىء على بالك تجده أمامك ؛ ذلك لأنك فى الدنيا تعيش بالأسباب ، وفى الآخرة تعيش بمُسبِّب الأسباب سبحانه وتعالى .

وكذلك لو أجريتَ مقارنة اقتصادية بين مـتعة الدنيا ومتعة الآخرة لرجحَتْ كِـفَّة الآخرة ؛ لأن الدنيـا بالنسبة لك هى عـمرك فيهـا فقط ، وليس عمـر الدنيا كله ، كمـا يحلو للبعض أنْ يُحـدِّد عمر الدنيـا بعدة ملايين من السنين ، فما دَخْلك أنت بكل هذه الملايين ؟!

فالدنيا ـ إذن ـ هى عمرى فيها ، وهذا العمر مظنون غير مُتيقَّن ، وعلى فرض أنه مُتيـقَّن فهو خاضع لمتوسط الأعـمار ، وسوف ينتهى حتـماً بالموت . أضِفْ إلى ذلك أن نعيـمك فى الدنيا على قَدْر سَعْيك وأَخْذِك بأسبابها .

أما الآخرة فهى باقية لا نهاية لهـا ، فلا يعتريها زوال ولا يُنهيها الموت ، كما أن مُدتها مُتيقَّنة وليست مظنونة ، ونعيمك فيها ليس على قَدْر إمكانياتك ، ولكن على قدر إمكانيات خالقك سبحانه وتعالى .

فأيّهـما أحـسن ؟ وأيُّهـمـا أَوْلَى بالسَّعْى والعـمل ؟ ويكفى أنك فى الدنيا مـهما توفَّر لك من النعـيم ، وإنْ كنت فى قمة النعـيم بين أهلها فإنه يُنغِّص عليك هذا النعيمَ أمران : فـأنت تخاف أنْ تفوتَ هذا النعيم

بالموت ، وتخاف أن يفوتك هو بالفقر ، فهى نعمة مُكدَّرة ، أما فى الآخرة فلا تخاف أن تفوتها ، ولا أن تفوتك ، فأىُّ الصفقتين أربح إذن ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إنكارهم للبعث بعد الموت :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾

الاستفهام فى الآية استفهام للتعجّب والإنكار لموضوع البعث يوم القيامة بعد أنْ صاروا رُفَاتاً وعظاماً .

والرفات : هو الفتات ومسحوق الشىء ، وهو التراب أو الحُطَام ، وكذلك كل ما جاء على وزن (فُعال) .

لقد استبعد هؤلاء البعث بعد الموت ؛ لأنهم غفلوا عن بداية الوجود وبداية خَلْق الإنسان ، ولو استعملنا علم الإحصاء الذى استحدثه العلماء لوجدناه يخدم هذه القضية الإيمانية ، فلو أحصينا تعداد العالم الآن لوجدناه يتزايد فى الاستقبال ويقلّ فى الماضى ، وهكذا إلى أنْ نصل بأصل الإنسان إلى الأصل الأصيل ، وهو آدم وحواء ، فمن أين أتيَا إلى الوجود ؟ فهذه قضية غيبية كان لا بُدَّ أن يُفكّروا فيها .

ولأنها قضية غيبية فقد تولّى الحق سبحانه وتعالى بيانها ؛ لأن الناس سوف يتخبَّطون فيها ، فينبهنا الخالق سبحانه بمناعة إيمانية عقدية فى كتابه العزيز ، حتى لا ننساق وراء الذين سيتهورون ويَهْرفون بما لا يعلمون ، ويقولون بأن أصل الإنسان كان قرداً ،

وهذه مقولة باطلة يسهُل رَدُّها بأن نقول : ولماذا لم تتحول القرود الباقية إلى إنسان ؟ وعلى فرض أن أصل الإنسان قرد ، فمن أين أتى ؟ إنها نفس القضية تعود بنا من حيث بدأتْ ، إنها مجرد شوشرة وتشويه لوجه الحقيقة بدون مبرر .

وكذلك من القضايا التي تخبَّط فيها علماء الجيولوجيا ما ذهبوا إليه من أن السماء والأرض والشمس كانت جميعاً جزءاً واحداً ، ثم انفصلت عن بعضها ، وهذه أقوال لا يقوم عليها دليل .

لذلك أراد الخالق سبحانه أنْ يعطينا طرفاً من هذه القضية ، حتى لا نُصغِي إلى أقوال المضلِّلين الذين يخوضون في هذه الأمور على غير هدى ، ولتكون لدينا الحصانة من الزَّلَل ؛ لأن مثل هذه القضايا لا تخضع للتجارب المعملية ، ولا تُؤخَذ إلا عن الخالق سبحانه فهو أعلم بما خلق .

يقول تعالى : ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. (٥١)﴾ [الكهف] أي : لم يكن معي أحد حين خلقتُ السماء والأرض ، وخلقتُ الإنسان ، ما شهدني أحد ليَصِفَ لكم ما حدث ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف] أيَ : ما اتخذت من هؤلاء المضللين مُساعداً أو مُعاوناً ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : احكموا على كل مَنْ يَخوض في قضية الخَلْق هذه بأنه مُضلِّل فلا تستمعوا إليه .

ولكي تُريحوا أنفسكم من مثل هذه القضايا لا تُحمِّلوا العقل أكثر مما يحتمل ، ولا تعطوه فوق مقومات وظائفه ، وجَدْوى العقل حينما ينضبط في الماديات المعملية ، أما إنْ جنح بنا فلا نجني من ورائه إلا الحُمْق والتخاريف التي لا تُجدي .

وكلمة « العقل » نفسها من العقال الذى يمنع شرود البعير ، وكذلك العقل جعله الله ليضبط تفكيرك ، ويمنعك من الجموح أو الانحراف فى التفكير .

وأيضاً ، فالعقل وسيلة من وسائل الإدراك ، مثله مثل العين التى هى وسيلة الرؤية ، والأذن التى هى وسيلة السمع .. وما دام العقل آلة من آلات الإدراك فله حدود ، كما أن للعين حدوداً فى الرؤية ، وللأذن حدوداً فى السمع ، فللعقل حدود فى التفكير أيضاً حتى لا يشطح بك ، فعليك أنْ تضبط العقل فى المجال الذى تُجوِّد فيه فقط ، ولا تُطلق له العنان فى كُلِّ القضايا .

ومن هنا تعب الفلاسفة وأتعبوا الدنيا معهم ؛ لأنهم خاضوا فى قضايا فوق نطاق العقل ، وأنا أتحدى أىّ مدرسة من مدارس الفلسفة من أول فلاسفة اليونان أن يكونوا متفقين على قضية إلا قضية واحدة ، وهى أن يبحثوا فيما وراء المادة ، فَمَنِ الذى أخبرك أن وراء المادة شيئاً يجب أن يُبحث ؟

لقد اهتديتُم بفطرتكم الإيمانية إلى وجود خالق لهذا الكون ، فليس الكون وليد صدفة كما يقول البعض ، بل له خالق هو الغيبيات التى تبحثون عنها ، وتَرْمَحُون بعقولكم خلفها ، فى حين كان من الواجب عليكم أنْ تقولوا : إن ما وراء المادة هو الذى يُبين لنا نفسه .

ولقد ضربنا مثلاً لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا : هَبْ أننا فى مكان مغلق ، وسمعنا طَرْق الباب ـ فكلنا نتفق فى التعقُّل أن طارقاً بالباب ، ولكن منا مَنْ يتصور أنه رجل ، ومنا مَنْ يتصوّر أنه امرأة ،

وآخر يقول : بل هو طفل صغير ، وكذلك منا مَنْ يرى أنه نذير ، وآخر يرى أنه بشير . إذن : لقد اتفقنا جميعاً في التعقُّل ، ولكن اختلفنا في التصوُّر .

فلو أن الفلاسفة وقفوا عند مرحلة التعقُّل في أن وراء المادة شيئاً ، وتركوا لمن وراء المادة أنْ يُظهر لهم عن نفسه لأراحوا واستراحوا ، كما أننا لو قُلْنا للطارق : مَنْ ؟ لقال : أنا فلان ، وجئت لكذا ، وانتهتْ المسألة .

ولقد ردَّ عليهم القرآن إنكارهم للبعث وقولهم : ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء] بقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [يونس]

وبقوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ[1] لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]

وبقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ..﴿٢٧﴾﴾ [الروم] فإعادة الشيء أهون من خَلْقه أولاً .

وقف الفلاسفة طويلاً أمام قضية البعث ، وأخذوا منها سبيلاً

---

(١) قال السدي : السجل ملك مُوكَّل بالصحف ، فإذا مات دفع كتابه إلى السجل فطواه ورفعه إلى يوم القيامة . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٨٣] قال ابن كثير في تفسيره (٣/٢٠٠) : « الصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة . وعلى هذا يكون معنى الكلام : يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب أي على الكتاب بمعنى المكتوب ».

لتشكيك الناس فى دين الله ، ومن مغالطاتهم فى هذه المسألة أنْ قالوا : ما الحل إذا مات إنسان مثلاً ثم تحوَّل جسمه إلى رفات وتراب ، ثم زُرِعَتْ فوقه شجرة وتغذَّت على عناصره ، فإذا أكل إنسان من ثمار هذه الشجرة فسوف تنتقل إليه بالتالى عناصر من عناصر الميت ، وتتكوَّن فيه ذرات من ذراته ، فهذه الذرات التى تكوَّنت فى الثانى نقُصَتْ من الأول ، فكيف يكون البعث ـ إذن ـ على حَدِّ قَوْلهم ؟

والحقيقة أنهم فى هذه المسألة لم يفطنُوا إلى أن مُشخِّص الإنسان شىء ، وعناصر تكوينه شىء آخر .. كيف ؟

هَبْ أن إنساناً زاد وزنه ونصحه الطبيب بإنقاص الوزن فسعى إلى ذلك بالطرق المعروفة لإنقاص الوزن ، وهذه العملية سواء زيادة الوزن أو إنقاصه محكومة بأمرين : التغذية والإخراج ، فالإنسان ينمو حينما يكون ما يتناوله من غذاء أكثر مما يُخرجه من فضلات ، ويضعف إن كان الأمر بعكس ذلك ، فالولد الصغير ينمو لأنه يأكل أكثر مِمَّا يُخرِج ، والشيخ الكبير يُخرِج أكثر مِمَّا يأكل ؛ لذلك يضعف .

فلو مرض إنسان مرضاً أَهْزَلَهُ وأنقص من وزنه ، فذهب إلى الطبيب فعالجه حتى وصل إلى وزنه الطبيعى ، فهل الذرات التى خرجتْ منه حتى صار هزيلاً هى بعينها الذرات التى دخلتْه حين تَمَّ علاجه ؟ إن الذرات التى خرجتْ منه لا تزال فى (المجارى) ، لم يتكون منها شىء أبداً ، إنما كميَّة الذرَّات ومقاديرها هى التى تقوى وتشخص .